مجلة الإحياء، المجلد: 20، العدد: 26، سبتمبر 2020، ص - ص: 679 – 704
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

عمل الحداد للعائلات في غياب أدلة على وفاة المفقودين في فترة الإرهاب بالجزائر

The mourning worked for families in the absence of evidence of the death of missing persons in the period of terrorism in Algeria

عبد الله بوضياف [1] **د/ عبد الحليم خلفي**
معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية
المركز الجامعي تمنراست - المركز الجامعي بريكة
مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تمنراست

abdelhalimkhalfi@cu-barika.dz boudiaf.abdellah@cu-tamanrasset.dz

تاريخ الإرسال: 2020/05/16 تاريخ القبول 2020/09/06

الملخص:

تناولت الدراسة آثار الفقدان في حالة عدم وجود دليل وفاة المفقود على عمل الحداد لعائلاتهم في فترة الإرهاب بالجزائر، وباعتماد المنهج العيادي، على عينة قصدية متكونة من سبعة عائلات لمفقودين مسجلين في جمعية Sos Disparu(e)s، ومن خلال بناء مقابلة نصف موجهة مبنية على تصنيف تظاهرات الحداد حسب E. Zech, 2006 بالإستناد للبعدي الزمني، تم الإجابة على التساؤلات التالية:

- تؤدي ظروف الفقدان دون ثبوت وفاة المفقود والخاصة بمرحلة الإرهاب في الجزائر إلى تعقيد الحداد عند أعضاء عائلات المفقودين.
- تؤدي ظروف الفقدان دون ثبوت وفاة المفقود والخاصة بمرحلة الإرهاب في الجزائر إلى حداد مزمن أي حداد مطوّل عند أعضاء عائلات المفقودين.

تمت مناقشة الفرضيتان في ظل الدراسات السابقة والتراث النظري لمتغيرات الدراسة.

الكلمات المفتاحية: عمل الحداد، الإرهاب، عائلات المفقودين.

1 – المؤلف المرسل.

Abstract:

The study examined the effects of loss in the absence of evidence of the death of the missing person on the work of mourning for their families in the period of terrorism in Algeria, and the adoption of the clinical approach, on a purposeful sample consisting of seven families of missing persons registered in the SosDisparu(e)s association, and by building a semi-targeted interview based on Classification of mourning events according to E. Zech, 2006 According to the temporal dimension, the following questions were answered:

- The circumstances of the loss, without the death of the missing, in connection with the terrorism phase in Algeria, are complicated by the mourning of members of the families of the missing.
- Conditions of loss without proof of the death of the missing person related to the stage of terrorism in Algeria lead to a chronic mourning, that is, a prolonged mourning for members of the families of the missing.

Both hypotheses were discussed in light of previous studies and the theoretical heritage of the study variables.

Key Words: Mourning, Terrorism, Families of the disappeared.

مقدّمة:

انطلقنا من الواقع الذي يعبرعن المعاناة العميقة لؤلائك الذين فقدوا أحد أقاربهم فجأة بعد تعلق الطويل بهم، لنصل بعد ذلك لمستوى أعقد حين يكون الشخص مفقودا لأمد طويل دون ثبوت وفاته كما هو الحال عند عائلات المفقودين جراء مرحلة عدم الاستقرار الأمني والسياسي بالجزائر في تسعينات القرن الماضي، وبالاتصال بأعضاء جمعية Sos Disparu(e)s والذي يتجمهرون كل أسبوع، محاولة منهم إيصال أصواتهم للمسؤولين وللمجتمع كلة.الأمر الذي دفعنا للبحث في طبيعة عمل الحداد لدى عائلات المفقودين.

على اعتبار أن عمل الحداد يرتبط بالموت؛ فالفقدان الحقيقي والنهائي لشخص قريب ذو قيمة ودور فعال في التوازن النفسي للفرد الحاد، لكونه يمثل في صورته الرمزية توقفا عنيفا ومفاجئا للتواصل الفعلي بين أفراد تعلقوا معا بروابط شتى يصعب تجاوزها بسهولة ويسر.

لذلك جاءت هذه الدراسة للتعريف بعمل الحداد وطبيعته لدى أفراد من عائلات مفقودي حقبة الإرهاب في الجزائر في ظل عدم تأكيد وفاتهم.

الإشكالية والخلفية النظرية للدراسة:

تعلق الحداد بمجموعة سلوكيات وطقوس اجتماعية للأفراد عقب فقدان عزيز كمراسم الدفن، والتأبين واللباس الأسود،... علما أن ذات السلوكيات تنسحب على المجتمع كتنكيس الأعلام وفرض الحداد لأيام...لكونها تساهم في تفريغ الشحنات الانفعالية والتخلص من مشاعر الذنب والتوتر.علما أن هذه الإجراءات عادة ما تمتد زمنيا من أيام وأشهر وحتى السنوات بفعل المشاعر والجهود النفسية التي يبذلها الحاد في سبيل الخروج من أزمته والتي تختلف من شخص لآخر بحسب عمق أثر الحزن، وأهمية التعلق بالمواضيع.

ففي عام 1917 نشر فرويد مقالا بعنوان "الحداد والميلانخوليا" أعتُبر مرجعا للعديد من الباحثين لسنوات طويلة، وانطلق من أن الشخص الحاد يجب أن يقوم "بعمل ضروري" لأن الأمر يتطلب طاقة نفسية، وإذا أُهمِل هذا العمل الضروري فإن الحاد يقع في المرض[1].

وتواصلت الدراسات التي تناولت الحداد إلى ما يبين قبل كل شيء مدى تأثير مختلف الظروف المسببة للفقدان في عملية عيشه، كما هو الحال في أول دراسة للفقدان المتعلق بالكوارث التي أجراها ليندمان (Lindman,1944) والتي شملت الأشخاص الذين فقدوا ذويهم في الحريق الذي نشب في الملهى الليلي بمدينة بوسطن، والتي وصفت بدقة ردود الأفعال في مرحلة الحداد، مع تطرقها لوجود حداد عادي وآخر غير عادي، وتوجت بنشر بحث بعنوان "أعراضية وتسيير الحداد الحاد".

والفقدان المتعلق بموت الزوج كما في دراسة بيتر ماريس (Marris, 1958)التي اهتمت بدراسة حالة إثنين وسبعين أرملة وأرمل في مدينة لندن أين أحدثت منهجا جديدا في دراسات عمل الحداد كونها أول دراسة تناولته لا تتعلق باضطرابات سيكاترية أو صدمية وذلك من خلال عينتها.

والفقدان المتعلق بمرض خبيث كما هو الحال في دراسة إليزابيث كبلر روس (K. Ross, 1975) وتناولت فيها أشخاصا في المرحلة النهائية

لأمراض خبيثة (كالسرطان) وحاولت متابعتهم وعائلاتهم للقيام بما سمي لاحقا "الحداد المسبق" (deuilanticipé) فكانت أول دراسة لحداد شخص لم يفقد بعد، ومن أهم نتائجها المراحل الخمسة لعملية الحداد

وتظهر علاقة الحداد بالمحيط والظروف التي حدثت فيها الوفاة ففي الدراسات الجزائرية نجدها تخصصت أغلبها بآثار حقبة الاضطرابات الأمنية التي عاشتها البلاد في تسيعنات القرن الماضي، فنجد دراسة رضوان زقار وعبد الرحمان سي موسي التي نشرت في كتاب "العنف الإرهابي ضد الطفولة والمراهقة علامات الصدمة والحداد في الاختبارات الإسقاطية" (2015)، فضلا عن الدراسات التي قامت بها الجمعية الجزائرية للبحث في علم النفس (SARP) وأهمها دراسة بوعطة حول الحداد عند ضحايا الإرهاب (2007).

وبعد الإطلاع على مختلف الدراسات التي اهتمت بآثار مرحلة الإرهاب في الجزائر، لم نقف على أي دراسة اهتمت بالحداد المتعلق بالظروف الإستثنائية لحالات المفقودين وعمل الحداد الذي تم على أشخاص لا يوجد أي دليل على فقدانهم نهائيا كما في حالات الفقدان جراء الوفاة.

وهو منطلق هذه الدراسة للإجابة على التساؤل التالي:ما طبيعة الحداد عند عائلات المفقودين ضحايا مرحلة الإرهاب في ظل عدم تأكيد وفاتهم؟

وفي مايلي نتناول المتغيرات التالية:

تعريف الإرهاب:

رغم كون تعريف الإرهاب من المفاهيم التي لم تستقر على تعريف واحد إلا أن صلاح الدين عامر يعتبره "الاستخدام المنظم للعنف لتحقيق هدف سياسي وخاصة جميع أعمال العنف وحوادث الاعتداء الفردية والجماعية أو التخريبية، التي تقوم منظمة سياسية بممارستها على المواطنين لخلق جو من عدم الأمن ينطوي على طوائف متعددة من الأعمال منها أخذ الرهائن واختطاف الأشخاص وقتلهم ووضع متفجرات أو عبوات ناسفة في أماكن تجمع المدنيين أو وسائل النقل العامة[2]، ويعرفه حريز عبد الناصر بأنه "استخدام أو تهديد بعنف غير مشروع لخلق حالة من الخوف والرعب بقصد التأثير أو السيطرة على فرد أو مجموعة من الأفراد أو المجتمع كله وصولا إلى هدف معين يسعى الفاعل إلى تحقيقه"[3].

تعريف الحداد:

اشتقت من أصلها اللاتينية (Dolére)، ومعناها الألم والمعاناة، وهي الحالة التي يجد فيها الشخص نفسه، إثر تعرضه لفقدان شخص عزيز عليه[4].

وعرّف Freud الحداد على أنه "رد فعل نتيجة فقدان شخص عزيز أو شيء مجرد في محله، كالوطن أو الحرية أو موضوع مثالي ما"[5].

ويرى Hanus أن الحداد "خاص وعام؛ عام كون كل أنواعه تلتقي في نفس المراحل الكبرى في سيرورتها، في عمليات داخلية وبعضها لا شعورية، أي يحدث ويعبر عن الانفصال، وتعاش في معاناة وتثبيط ونكوصات وتحتوي على مخاطر. لكن كل حداد هو حداد خاص أيضا لخصوصية العلاقة التي كانت ولا تزال تربط الشخصين الذين فُقد أحدهما. كما أن الفقدان (الوفاة) يعطي للحداد بعدا خاصا بسبب عدم رجعيته (Irréversibilité)، كما يوجد فقدان غير الموت يؤدي إلى معاناة صعبة وجد مؤلمة".

كما أشار Hanus إلى البعد الاجتماعي للمفهوم فهو "مجموع العادات والممارسات الاجتماعية المصاحبة لفقدان فرد من الجماعة وما تحمل خلفها من ممنوعات مؤقتة ترتبط بها. كما وافقه M. Bacqué في أهمية العادات والطقوس حيث "يمكننا القول أنه لا يمكن أن يتم عمل الحداد دون وجود طقوس، أي دون وجود دليل على الوفاة أو دون فاصل يفصل المفقود عن واقع الحياة الطبيعية"[6].

فالحداد إذا هو حالة المعاناة التي يجد فيها الشخص نفسه بعد فقدان موضوع الحب، والتي تتطلب عملا فرديا وطقوسا اجتماعية تساعد بدلالاتها على كون الفقدان غير رجعي (Irréversible) للوصول إلى تقبل هذا الفقدان.

وفي بحثنا هذا سندرس الحداد أي المعاناة الناتجة عن الفقدان عند عائلات المفقودين، وكيف سيؤثر غياب الدليل على الوفاة على عدم قابلية الفقدان بسبب غياب الجثة وإستحالة القيام بالطقوس الاجتماعية.

مفهوم عمل الحداد ونماذجه:

فضلا عن كون الحداد حالة تأتي بعد الفقدان كما سلف، وجب علينا التعرض للعملية الدينامية النفسية والسلوكية والمعرفية التي يمر بها الشخص

في مرحلة الحداد والتي تسمح له بالعودة إلى الاتزان والمتمثلة في مفهوم عمل الحداد، ومختلف مراحله المذكورة في أدبيات مختلف النماذج النظرية.

المقصود بعمل الحداد: هو مصطلح وضعه S. Freud في مقاله حول "الحداد والسوداوية" والذي نشره سنة 1917 والذي يعتبره عملية سحب التوظيف الليبيدي من موضوع تم فقده.

أما بالنسبة لـ Bacqué (1997) فهو دينامية التغيرات النفسية التي يعيشها الفرد بمعاناة لتقبل الفقدان وديمومته (Irréversibilité) بهدف الوصول للاستقلال النفسي عن الشخص المفقود.

ويرى MurrayParkes (2003) أنه عملية تتضمن علامات عيادية متعددة تستبدل فيما بينها في شكل مراحل، أين يكون لكل مرحلة خصوصياتها وأخرى في طريقة عيش الشخص لها.فعمل الحداد هو عملية دينامية تسودها المعاناة وتمر بمراحل مختلفة للوصول إلى تقبل الفقدان.

نماذج المراحل: تعددت نماذج مراحل عمل الحداد بتعدد النظريات التي تناولته، فنجد نموذج التحليل النفسي يقسم عمل الحداد إلى ثلاث مراحل (الإنكار، الاكتئاب، والتقبل).

بينما قسمها John Bowlby (1961) إلى أربع مراحل (التخذير، التوق، الخلط وفقدان الأمل، وإعادة الترتيب).

وترى Elisabeth Kubler-Rossأنها خمس مراحل (الإنكار، الغضب، المساومة، الاكتئاب، والتقبل)[7].

وقد لاحظت الباحثة E. Zech (2006) الإختلاف بين هذه النماذج من جهة، ومن جهة أخرى وجود تشابهات كثيرة في محتوياتها فقامت بمحاولة الخروج بنموذج يجمع كل ما اتفقت عليه النماذج مجتمعة والتي وصفت مراحل عمل الحداد وخرجت بنموذج يحتوي على أربع مراحل وهو كالآتي:

المرحلة الأولى؛ الصدمة والإنكار، والثانية؛ مرحلة البحث (بولبي) أو التظاهر (باركس)، والثالثة؛ الفوضى، فقدان الأمل أو الاكتئاب، والمرحلة الرابعة والأخيرة؛ إعادة التنظيم وإعادة الاندماج أو القبول.

نقد نموذج المراحل:

في السنوات الأخيرة، كانت حركة نقد من طرف المختصين لنموذج مراحل الحداد، فمن جهة شمل النقد الاختلاف الكبير في المراحل من نظرية لأخرى لكنه أيضا تعرض إلى كون فهم ردود أفعال الإنسان في حالة الحداد هو أكثر تعقيدا مما يبدو عليه، وسيكون من المضر تطبيق نموذج محدد مسبقا في نوع المراحل وزمن كل مرحلة يمر بها الشخص كما هو الحال في نموذج مراحل الحداد، واقترح بعض هؤلاء الباحثين مثل وردن (W. Worden) نموذجا آخر كمحاولة لجعل عمل الحداد مفهوما، فاقترح أن على الشخص الذي يمر بعمل حداد أن ينجح في القيام بعدة مهام، هذه الأخيرة ليست مراحل متتابعة بل عمليات تقود إلى حل عمل الحداد وقد لُخصت في أربع نقاط هي:

- تقبل حقيقة الفقدان، وحقيقة تغير عالم الشخص الذي يعيش الحداد.
- الشعور بألم ومعاناة عملية الحداد.
- التأقلم مع المحيط الذي سيكون فيه المفقود غائبا بتطوير مهارات جديدة
- إعادة مركزة مكانة المفقود ومواصلة الحياة مع تغيير الروابط معه.

ولذلك سنعتمد في دراستنا بدل نموذج المراحل نموذج تظاهرات الحداد وهو النموذج المتفق عليه من طرف جل الباحثين[8].

تظاهرات الحداد:

قامت E. Zechفي كتابها علم نفس الحداد (2006) للتعرض إلى نقاط الاتفاق بين مختلف الباحثين في مجال الحداد، وأظهرت أن القاسم المشترك بينهم هي تلك المتعلقة بمظاهره؛ أي مختلف الاستجابات التي تظهر على الشخص الذي يمر بمرحلة حداد والتي يمكننا تقسيمها لخمسة أنواع هي التظاهرات العاطفية، والسلوكية، والمعرفية، والجسدية والتغيرات الفزيولوجية.

التظاهرات العاطفية:

أ- الصدمة:عندما يكون هناك إعلان صدمي لفقدان شخص قريب تمر مدة من الزمن تكون فيها حقيقة المعلومة غير مدركة تماما، مرحلة الصدمة هذه قد تكون شعورا بتخذير الحس، وقد تصير حتى شعورا بالتفكك عن الواقع. هذه الحالات قد تدوم من عدة دقائق إلى عدة أيام أو أسابيع.

ب- الشعور بمعاناة نفسية والاكتئاب: وهي عادية في حالة الحداد الطبيعي، أين يشعر الشخص بالحزن، الأسى، الانزعاج بالإضافة إلى معاناة نفسية حادة تكون عادة مرتبطة بذكريات محددة، كما يمكن أن تعود بسبب أعياد ميلاد، أفراح، المرور بإمكان تحمل ذكريات مع المفقود... وغيرها.

ج- العجز وفقدان الأمل:الأشخاص الذين يعيشون مرحلة حداد، تكون لديهم نظرة سلبية للوضعية الحالية وللمستقبل، بإمكانهم الشعور بفقدان أهدافهم في الحياة كما قد نلاحظ وجود رغبة في الانتحار (عدم العيش دون الشخص المفقود) كما قد يكون هناك شعور بعدم التحكم فيما يحدث.

د- الحصر: عند انقطاع علاقات التعلق يكون هناك حصر كبير تجاه المستقبل، وطريقة العيش في هذه الوضعية الجديدة، الشعور بعدم الأمان كالأطفال المبعدين عن أوليائهم. كما يكون هناك حصر تجاه الجانب المادي أو تجاه المهام التي كان يقوم بها الشخص المفقود.

هـ- الشعور بالذنب: يمكن في حالة حداد أن يشعر بالذنب وفق ثلاثة أشكال:

- شعور الناجين بالذنب، والذي نلاحظه من خلال لوم الذات وطرح أسئلة مثل "لماذا هو وليس أنا".

- الشعور بالذنب المتعلق بالمسؤول عن الموت أو المعاناة ويكون عن طريق محاسبة الذات عن أمور قام بها الشخص أو لم يقم بها في الماضي والتي كانت لتغير (حسب رأيه) الواقع الحالي.

- قد يكون هناك شعور بالذنب كخيانة للمفقود في حال توقفنا عن إظهار المعاناة.

و- الغضب: نلاحظ وجود حساسية مفرطة، وغضب سريع، كون الشخص الذي يمر بمرحلة حداد يحس أن من حوله لا يفهمون معاناته أو أنهم لا يعطون الشخص المفقود قيمته، كما أنه ليس من النادر أن يحس الأشخاص بغضب تجاه الشخص المفقود بحد ذاته لأنه تركهم وحيدين أو لأنه لم يهتم بصحته مثلا، كما يحدث أن يكون الغضب موجها نحو الأطباء وفريق الرعاية الذي كان يتكفل بالمفقود (في حالة وفاته بعد مرض) ويمكن أن يكون الغضب موجها نحو الذات بالنسبة للشعور بالذنب، ويعد الغضب مؤشر الدخول الشخص في عملية الحداد.

التظاهرات السلوكية:

الإثارة: حيث تظهر في كثرة الحركة، التوتر، قلة الراحة، عدم إتمام المهام، كما تصف المراحل أيضا تظاهرات البحث عن الشخص المفقود.

التعب: يظهر من خلال ضعف عام في النشاطات المعتادة، ثقل في التفكير والخطاب، كما يحدث أن تكون هذه المراحل مفصولة بأوقات من الإثارة.

البكاء: يكون ردة فعل تجاه الحزن، الغضب والشعور بالذنب وكذلك الحصر.

أما السلوكات تجاه الشخص المفقود فتتوزع على ثلاثة أنواع:

أولا: التوق للمفقود، حيث يظهر في سلوكات البحث عن الشخص المفقود، نوبات حنين قوية مع انتظار عودته ومناداته بصفة تظهر المعاناة.

ثانيا: الشخص الذي يعيش حالة حداد يمكن أيضا أن يقلد بعض سلوكات الشخص المفقود أو أن يتبع قيم وأهداف وأحلام الشخص المفقود.

ثالثا: يمكن للشخص أن يكلم الشخص المفقود رغم غيابه.

التظاهرات المعرفية:

خلط عقلي: في المراحل الأولى لتلقي الخبر ومواجهة حقيقته يمر الشخص بحالة من الخلط العقلي في عدة مظاهر: كصعوبة في الانتباه، خلط، اضطرابات في الذاكرة، تظهر هذه الأعراض في الأسبوع الأول وقد تستمر لعدة أشهر.

صور وذكريات إستحواذية: الحوادث المتعلقة بالفقدان أو الموت تبقى مسجلة في الذاكرة، بكل تفاصيلها، كما لو أنه يعيشها مجددا، هذا "الإجترار العقلي" يلاحظ بصفة كبيرة، عادة قبل النوم، أو حين يكون الفرد وحيدا وغير مشغول.

التجنب: في أوقات تتابع مع الذكريات الإستحواذية، يقوم الشخص الحاد بتجنب الذكريات المتعلقة بالفقدان من خلال رفض زيارة أشخاص أو أماكن تذكره به.

نقص في تقدير الذات: يشعر الأشخاص في حالة الحداد أنهم أصبحوا دون فائدة، وأنهم سيفشلون في غياب المفقود.

التظاهرات الفزيولوجية:

تغيرات وشكاوى جسدية سجلت عند الأشخاص في حالة حداد ومنها:

تغير في الوزن؛ لأن فقدان الشهية أو الشهية المفرطة من بين الأعراض التي قد تصاحب مختلف الحالات العاطفية في الحداد.

اضطرابات في النوم؛ عدم القدرة على النوم فضلا عن نوبات على شكل نوم لفترات طويلة وغير إعتيادية واضطراب رتم الساعة البيولوجية (ليل/نهار).

الشكاوى الجسدية:

والتي تشمل الشكوى من آلام في الرأس، الرقبة، التشنجات العضلية، الشعور بالدوار والرغبة في التقيئ، اضطرابات في المعدة، اضطرابات في الرؤية، اضطرابات في التنفس، الشعور بالفراغ على مستوى البطن، أو بكرة قلق، نقص في المقوية العضلية وحتى تساقط الشعر...إلخ.

تعقيدات الحداد والعوامل المؤدية إليه:

لقد أظهرت الدراسات وجود اضطرابات في السير الطبيعي لعمل الحداد عند بعض الحالات أو في بعض الظروف تجعله لا يصل أو يتأخر في الوصول إلى مرحلة حل الحداد (مرحلة التقبل) وهذا ما أطلق عليه إسم الحدادات المرضية أو تعقيدات الحداد.

تعريف الحداد المعقد:

رغم عدم وجود تعريف موحد له، إلا أن الـ DSM III-R يقر أن الحداد الذي يطول ويكون مصاحبا بعجز وظيفي هو حداد معقد، ويعترف بأن الاختلافات الثقافية في طريقة عيشه تجعل من الصعب تحديد معايير دقيقة له[9].

وترى E. Zech أن الحداد المعقد هو الحداد الذي يرتبط بوجود مظاهر ذات دلالة مرضية لا تظهر في التطور العادي للحداد وقد تم تصنيفه حسب المظاهر المرضية لعدة أصناف[10]

أشكال الحداد المعقد:

يتخذ عدة أشكال حسب المدة، وشدة الإكتئاب، ودرجة التعقيد، وسنركز في بحثنا على المدة فقط، وبذلك لن نتعرض للحداد السيكاتري الذي رغم اعتباره من أنواع الحداد المرضي إلى أنه يملك غالبا خصوصيات الاضطراب السيكاتري المصاحب له ولا تتشابه مظاهره مع مظاهر الحداد لدى الأشخاص غير المصابين باضطرابات سيكاترية كما أظهرتها دراسة Maris (1958) والتي وجد أنه من أصل إحدى وعشرين حالة حداد سيكاتري كانت هناك حالة واحدة فقط تظهر نفس مظاهر الحداد التي نجدها عند الأشخاص غير المصابين

باضطرابات سيكاترية، والحالات العشرين المتبقية تظهر إما مظاهر حادة أو مشوهة للحداد ومرتبطة بالاضطراب الذي يعانون منه[11].

وبهذا تقسم أصناف الحداد المعقد حسب المدة إلى:

الحداد المؤجل (Deuil Différé)؛ يسمح فيه الإنكار الأولي للفقدان لوقت طويل، حيث يكون هناك رفض لا شعوري لواقع الفقدان. فالشخص الذي يعيش هذا النوع من الحداد لا تبدو عليه أي تظاهرات بعد معرفته بالفقدان، بل يتصرف وكأن شيئا لم يتغير، ويتفادى الحديث على هذا الفقدان حتى تستمر هذه المرحلة. كما تظهر هذه الرغبة في الإنكار في سلوكاته فتجد الأم مثلا تواصل تجهيز ثياب ابنها المفقود كل صباح، وتضع له حصته من الأكل على الطاولة، ويؤجل الإكتئاب كعرض للفقدان لمدة طويلة، لكنه يأتي في الأخير، عادة نتيجة لحادث آخر يضع الشخص أمام واقع الفقدان[12].

الحداد المثبط (Deuil Inhibé)؛ فتظاهرات الحداد الطبيعي تكون غائبة في البداية، كما هو الحال في الاكتئاب المختفي في الحداد المؤجل. فالإختلالات العاطفية تختفي لتظهر على شكل أعراض جسدية. فحسب باركس؛ الحداد المثبط هو حداد مؤجل فاشل، لأن التظاهرات التي يحاول الجهاز النفسي إخفاءها من خلال إنكار الفقدان تظهر على المستوى السوماتي. هذا النوع من الحداد شائع عند الأطفال أو كل من لا يستطيع مستواه العقلي والمعرفي مساعدته على التعبير عن معانته[13].

الحداد المزمن (Deuil Chronique)؛ هو استمرار الحداد لمدة طويلة بحيث يبدو بلا نهاية، ويمكنه أن يكون على شكل صراع لمعرفة أسباب وفاة الشخص، والمسؤولين عن ذلك وإعادة تكوين أحداث عملية الفقد. يتميز هذا النوع من الحداد بعدم الوصول في طور عمل الحداد إلى المرحلة الأخيرة (القبول)، الحاجة للاستمرار في البحث عن الشخص المفقود والتوق إليه، الغضب، الشعور بالذنب، القلق، العزلة والاهتمام طول الوقت بقضية الشخص المفقود، اكتئاب مزمن، وبكاء يبدو وكأنه لا نهاية له.فهو حسب Parkes لا يكون فيه تغير بل يبدو لنا أن الشخص لا يسمح لنفسه بالتحسن[14]؛ فعدم القدرة على استعادة التوازن الذي كان قبل الفقدان بعد مدة طويلة تفوق السنة أو

السنتين. وقد يجد الشخص في هذه الحالة فائدة لا شعورية من استمرار هذا الوضع، تتمثل في استخدامه كعذر لبعض التصرفات. كما قد يتمثل رفض القيام بالحداد معاقبة ذاتية لا شعورية.

تشير E. Zech أنه يصاحبه بعض المظاهر كالحاجة للبحث عن المفقود، لوم الذات، الغضب، الشعور بالذنب، اضطرابات في النوم ومظاهر حصرية، إجترار عقلي وفكرة أن المفقود سيعود وحسب Prigerson et al عام (1995) ويتضمن الحداد المعقد المزمن بقاء الأعراض التالية لمدة تفوق الستة أشهر:

رفض أو عدم القدرة على قبول الفقدان (أو الوفاة)، مواصلة البحث عن المفقود، التوق، الاهتمام المفرط بالفقدان، شعور دائم بالصدمة، وبكاء مستمر.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض حالات الحداد المزمن تكون ناتجة عن حالات فقدان متكررة أو بسبب طبيعة الفقدان والظروف التي حصل فيها. وفي هذه الحالة وجوب التكفل الخاص بالشخص حتى يستطيع مواصلة عمل حداده[15].

عوامل الخطر المؤدية إلى حداد معقد: هناك عدة عوامل وقد ذكرت كل من الباحثتين L.Angladette و Silla M. Consoli عام (2004)؛

- طبيعة العلاقة بالمفقود يكون خطرا أكبر كلما كان المفقود أقرب.
- ظروف الفقدان وطبيعة حدوث الفقدان (انتحار، كارثة طبيعية، اختطاف.. إلخ) هي من بين العوامل التي قد تجعل الحداد معقدا.
- طريقة إبلاغ خبر الفقدان ففي حالة تقديم الخبر خاليا من إظهار الإعتراف بمعاناة الشخص يمكن أن يتسبب هذا في حدوث حداد معقد.
- خصوصيات الشخص كالسن والجنس وطبيعة بنية الشخصية والسوابق السيكاترية وما إذاكان هذا الفقدان الأول أو أنه متكرر يمكن أن يساهم كل هذا في جعل الشخص يعيش حدادا معقدا من عدمه[16].

ونذكر أننا في في دراستنا سنعمل على معرفة ما إذا كانت الظروف الخاصة بالفقدان، وغياب الدليل على وفاة المفقود في حالة عائلات المفقودين ستتسبب في تعقيدات على مستوى الحداد أم لا.

الطقوس والخصوصيات الاجتماعية في مواجهة الموت:

إذا كان مفهوم الحداد يمثل قبل كل شيء التظاهرات النفسية الفردية فهو يشمل أيضا البعد الاجتماعي كما بينه Hanus (1997)، أي التظاهرات الاجتماعية للحداد والتي تكون على شكل طقوس تحمل معاني مشفّرة وتأثر على تقدم وانتهاء عمل الحداد كما أشار له Bacqué (1997).

ولهذا تختلف طريقة عيش الحداد من مجتمع لآخر، وحتى في المجتمع الواحد قد تختلف من منطقة لأخرى مع احتمال الاشتراك في بعض مظاهرها. والمجتمع الجزائري كباقي المجتمعات له طابعه الخاص والذي يتجلى من خلال الطقوس والعادات والتقاليد الخاصة به. فقديما كان يعبر عن الحداد في بعض المناطق بالتعبير المفرط،من خلال طابع درامي مفرط اعتقادا منهم أنه كلما كان الحداد مرفوقا بأشجان وأحزان مفرطة كلما ارتفع شأن وقدر المفقود لدرجة أنهم كانوا يخصصون نساء يزدن من الطابع الدرامي وكان ذلك بمثابة مهنة لهن وتعرفن بـ "النّدابات" (Les Pleureuses) إضافة لذلك لا بد أن ينعكس هذا الطابع على هيئة الحاضرات،حيث كن يرتدين ملابس بالية وقديمة مع عدم مشط الشعر، كما أن أهل الفقيد المقربين يمنعون من آداء الأعمال المنزلية وترتيبات العزاء ويكونون محاطين بأشخاص يعززوا الحزن لديهم.

وفي صباح اليوم التالي للدفن يقومون بزيارة القبر وتوزيع "الحرشاية" على الفقراء والنواح أمام القبر، ويقام بعد أسبوع عشاء لكل الحاضرين والمعزين ويكون تطبيق هذه الطقوس وغيرها لمدة أربعين يوما، بحضور أشخاص معهم كل هذه المدة، وتكون نهاية الحداد مع اليوم الأربعين،حيث يأتي كل الأهل والأقارب والجيران ويقام عشاء يطلق عليه "عشاء الأربعين"[17].

وقد أولى الكثير من الباحثين اهتماما كبيرا لدور الطقوس في عمل الحداد حيث يقول LouisVincent Thomas (1995) أن فقدان شخص عزيز يتسبب في كثير من المعاناة ومشاعر الحزن بسبب فقدان الآخر ولكن أيضا بسبب فقدان جزء منا يذهب مع الآخر (ذكريات، وأحداث..) وأشار L.V.Thomas لهذا الحزن المرفوق بشعور معتبر بالذنب لعدم إعطائنا للمفقود ما يستحقه من حب أو عدم تمكننا من التمسك به أكثر وهنا يصبح

العزاء ضروريا، فمن الضروري أن يعتنى بالشخص الذي يعيش الحداد إذا كان يؤدي عمل حداد بطريقة سيئة (ما يسمى تعقيدات الحداد أو الحداد المرضي) كرفضه تقبل الفقدان مثلا، ومن هنا كانت المجتمعات تلجأ إلى الطقوس وبعضها اليوم يقصد المختص النفسي أو الطبيب العقلي لإخفاء هذه الطقوس عنده.

ويرى Luis-Vincent Thomas أن الهدف من طقوس الجنازة هو ترميز وتنظيم الحزن وبالتالي تنظيم لعمل الحداد. ولهذا نلاحظ أن الطقوس تكون أكثر في المراحل التي تكون فيها المعناة أكبر، فيصبح التعبير الفردي عن المشاعر عند الشخص الذي يعيش الحداد مدمجا في تعبير الجماعة ما يؤدي إلى احتواء هذا التعبير وإعطائه رتم الجماعة الذي يسمح بإعادة تنظيمه[18].

ويشير M. Bertrandإلى دور "النّدابات" على أنها "مسيّر للحداد، حيث يسمح للشخص الذي يكون حينها في حالة صدمة، من سماع معاناته يعبّر عنها من خلال بكائهن"[19].

وهنا جاءت دراستنا، حول عائلات مفقودي العشرية الإرهاب التي تعيش الفقدان دون وجود أي دليل رسمي على الوفاة وفي ظل غياب الجثة يصبح القيام بالطقوس الاجتماعية مستحيلا، لذا سنحاول التعرف على كيفية تأثير هذا النوع من الفقدان على حدادهم؟ وعلى سير عمل الحداد لديهم؟

منهج البحث:

التوجه المنهجي لدراستنا هو توجه نوعي في المنظور التفهمي للمنهج العيادي كونه الملائم لموضوع دراستنا أي المعاش الذاتي للحداد عند عائلات المفقودين.

يعطي المنهج العيادي الأهمية إلى المعاش الذاتي للفرد. فهو ينظر للإنسان في فرديته ويهتم بالشكل الخاص الذي يعيش به الحادث أو الوضعية بحثا ليس عن الحقيقة في المعنى العلمي للكلمة (بألفاظ سبب- نتيجة) بل "حقيقة الشخص" يعني المعنى المعطى للوضعيات كما يعيشها ويشعر بها. وهذا هو قلب المنهج العيادي والذي تعرفه Lydia Chabrier بأنه "الدراسة المعمقة لحالات فردية في معاشها الناتج عن تاريخها الشخصي"[20].

فإذا كان الهدف التفهمي للمنهج العيادي هو الملائم لبحثنا، فإنه تواجهه ودراسة الحالة الفردية عدة انتقادات بالنسبة لنتائجها. تتعلق بإبتعادها عن الموضوعية، لإعطاء البرهان العلمي ولتعميم النتائج، لهذا إستخدمنا شكلا من أشكال المناهج النوعية الموضوعية أي المناهج المختلطة (Méthodes Mixtes) التي تربط بين مبادئ الطريقة العيادية النوعية بهدف تفهمي من جهة وبين الطريقة الموضوعية لضمان سلامة المنهج العلمي من جهة أخرى. ونظرا لاستحالة وصولنا إلى عينة كافية لهذا النوع من البحث، اخترنا القيام بدراسة الحالات المتعددة (L'étude multi cas).

تقنية جمع المعطيات:

المقابلة المستوحاة من مبادئ عدم التوجيه:

اعتمدنا في بحثنا هذا على المقابلة نصف الموجهة والتي تكون التقنية المفضلة من طرف علم النفس العيادي للحصول على معلومات عن ذاتية الأفراد كما هو الحال لدراستنا الحالية.

فالذاتية تتبين من خلال الكلام الموجه للمختص العيادي المقصود هو جعل العميل يتكلم بأكثر حرية ممكنة ولا نقيده بالإجابة على أسئلتنا وهذا لاحترام معاشه الذاتي كما يعبر عنه تلقائيا.

غير أنه، وبالنظر للمنهج المختلط المتبنى ومنه الأهداف المحددة لدراستنا، إخترنا المقابلة نصف الموجهة يعني بدلا من أن نقدم محورا ونترك حرية التعبير للعميل كما في المقابلة غير الموجهة في منظور نوعي/تأويلي سنقدم مقطوعات من المحور الأساسي يعني محاور فرعية وهي أسئلة مفتوحة نسبيا والتي تكوّن النقاط الهامة للكشف عن أغراض البحث.

تكوّن هذه المحاور الفرعية "مرشد المقابلة" (Guide d'entretien). المقصود هو ترك أكثر حرية ممكنة للعميل للتعبير على المحاور المقترحة عليه مع احترام تعبيره التلقائي إلى أقصى حد وفي نفس الوقت الوصول به إلى مختلف المحاور لتحقيق أغراض البحث.

محاور المقابلة:

تم بناء "مرشد المقابلة" لتحديد المحاور التي تسمح لنا بالحصول على المعطيات المناسبة لتحقيق أهداف الدراسة.

ففيما يخص معرفة معاش الحداد في مختلف تظاهراته: أخذنا تصنيف تظاهرات الحداد المتفق عليه من طرف الباحثين والذي قدمته E. Zech (2006) وهي التظاهرات العاطفية، السلوكية، المعرفية، الاجتماعية والجسدية وحوّلنا كل صنف من التظاهرات إلى سؤال مفتوح.

وفي ما يخص التأكد من أن الحداد هو حداد مزمن قمنا بطرح سؤال مباشر حول استمرارية أو عدم استمرارية التظاهرات الخمسة السابقة الدالة على وجود حداد. وفي سبيل احترام روح عدم التوجيه قدر الإمكان، بدأنا المقابلة بسؤال عام مفتوح (أحكيلي واش صار وكيفاه عشت واش صر؟) مرفوق بأسئلة فرعية متعلقة بالمحاور التي سنذكرها لاحقا، ثم تركنا للمبحوث حرية التعبير عنها مع بعض تدخلات الباحث لتوصيله للكلام حول المحاور الخمسة المسطرة للمقابلة. تم تحويل كل محاور المقابلة إلى أسئلة كما يلي:

1- محور التظاهرات العاطفية: ماذا أحس وبماذا شعر (واش حسيت كي فهمت بلي (س) ولا مفقود).

2- محور التظاهرات السلوكية: ماذا فعل، وبماذا قام (واش درت ؟)

3- محور التظاهرات المعرفية: يهتم بالخلط العقلي والهلاوس المتعلقة برؤية وسماع المفقود (صرالك أنك تخايلت حوايج تتعلق بالشخص المفقود؟).

4- محور التظاهرات الاجتماعية: ماذا غيرت حادثة الفقدان في حياته الاجتماعية وعلاقته مع الآخرين؟ (واش بدل هذا الشيء في حياتك الاجتماعية والعلاقة بينك وبين الناس،العائلة، والأصدقاء...؟).

5- محور التظاهرات الجسدية: يخص الاضطرابات الفزيولوجية التي حدثت بعد الفقدان كاضطرابات النوم أو في الشهية (والرقاد كنتي ترقدي؟ والماكلة؟).

البعد الزمني لمختلف تظاهرات الحداد: مدى استمرار الاستجابات المتعلقة بالمحاور السابقة في الزمن، وهل اختفت اليوم أم لا، حيث كنا نطرح بعد كل إجابة تعبر عن محور من المحاور السؤال التالي: واليوم؟ أو كأن تقارن واش قوتلي درك بواش راك عايش ليوم تبانلك نقصت؟ زادت؟ ولا بقات هي هي؟

الدراسة الاستطلاعية:

قمنا بدراسة استطلاعية لاستجواب اختياراتنا النظرية، للتأكد من أننا لم نهمل أي بعد هام من أبعاد المشاكل التي لن تسمح اختياراتنا النظرية بكشفها والوقوف على الضغوطات المحتملة للميدان التي قد تعرقل بحثنا ومنه قابلية الاختبار للتطبيق الفعلي.

تمت الدراسة الإستطلاعية في مقر جميعة Sos Disparu(e)s المتواجد في 21 حي مصطفى بن بولعيد بوسط الجزائر العاصمة، حيث كان اختيارنا لهذه الجمعية ضروريا لعدة أسباب نذكر منها:

- غياب لائحة وطنية رسمية للمفقودين مما يصعب الوصول إلى عائلاتهم غير المنتمين للجمعية.
- حساسية الموضوع سياسيا والتي تجعل الحديث فيه خارج الجمعيات يسبب مشاكل أمنية كما سبق وحدث - لصحافيين، وقانونيين- تناولوا نفس الموضوع.
- توفر الجمعية على إطار قانوني ومقر يسمح بالقيام بالمقابلات علمية مقبولة.

وقد بينت لنا دراستنا الاستطلاعية في مقر الجمعية عراقيل أخرى (عدا صعوبة الوصول لحالات خارج الجمعية) لتكوين عينة الحالات حسب مبدأ تنويع الحالات قدر الإمكان بتنوع مجتمع الدراسة متمثلة خصوصا في:

- أن أغلب من يقصد الجمعية هم نساء (أمهات أو زوجات المفقودين).
- تردد عدد قليل من العائلات على الجمعية، بسبب انسحاب أغلبها إما لأسباب صحية أو لتوفي الوالدين الذين كانا يبحثان عن المفقود أو لأسباب أخرى. وبالتالي عدم وجود عدد كافي من الحالات لهذا فضلنا الاحتفاظ بالحالات المتاحة لتكوين مجموعة البحث، كما تم استغلال شهاداتهم المسجلة سابقا من قبل الجمعية في إطار حصة إذاعية (La radio des sans voix) تقوم ببثها على الانترنت. تتضمن هذه التسجيلات قصصا وشهادات عائلات المفقودين وهم يسردون مجريات ما حدث لهم من يوم الإختفاء حتى يوم تسجيلها، وقد اعتمدنا على هذه التسجيلات للتأكد من ملائمة خياراتنا النظرية.

فقد أظهرت لنا هذه التسجيلات وجود معاناة معتبرة عاشتها العائلات بعد الفقدان، والمتمثلة في عمل الحداد، حيث ظهرت أغلب تظاهرات الحداد المتفق عليها عند الباحثين والمذكورة من طرف E. Zech (2016). هذه التسجيلات أكدت لنا وجود الحداد ومن جهة أخرى صلاحية ما اخترناه كنموذج نظري لعدم ظهور أي تظاهرات لا يشملها ما ذكر في هذا النموذج.

كما أظهرت لنا التسجيلات بوضوح مدى أهمية الظروف التي تحيط بالفقدان عند العائلات حيث لاحظنا تكرار تعبيرها عن الحاجة إلى دليل على مصير الشخص المفقود ومدى المعاناة الناتجة عن غياب القبر والمتمثلة في استمرار ظهور تظاهرات الحداد بوضوح الأمر الذي ساهم في وضع فرضية بحثنا المتعلقة بالحداد المزمن.

مجتمع ومجموعة الدراسة والإطار الزماني للدراسة:

مجتمع الدراسة:

اقتصر مجتمع الدراسة على جمعية Sos Disparu(e)s للأسباب السابق ذكرها، ولكونها التجمع الرسمي الوحيد لعائلات مفقودي مرحلة الإرهاب في الجزائر. ويعود وإسم الجمعية عن عبارة Collectif des familles Algérie sen dedisparu(e) أو تجمع عائلات المفقودين في الجزائر (CFDA) والذي أسس في جوان 1999 بفرنسا، ليتم فتح أول مكتب لها بالجزائر العاصمة سنة 2001، تم بعدها فتح مكتبين آخرين في كل من وهران وقسنطينة بالإضافة إلى مكتب باريس.

تمثل عائلات المفقودين المتواجدة بالجمعية من نساء يمثلن أمهات، زوجات، وأخوات المفقودين،ليتم التكفل بمساعدتهم قانونيا (التكفل بإجراءات ومراسلات البحث عن المفقودين) كما تعتبر الجمعية مكان تفريغ نفسي وتجمع لمختلف عائلات المفقودين.

مجموعة البحث:

إعتمدنا في الدراسة على عينة التطوع "القصدية" والتي تنتمي إلى العينات غير الاحتمالية ونلجأ إلى هذا الأسلوب من العينات في الدراسات التي يصعب فيها تحديد جميع أفراد المجتمع أو الوصول إليهم[21]، حيث حتى داخل جمعية Sos Disparu(e)sهناك صعوبة في الوصول إلى كل العائلات

المنتمية لها بسبب عدم زيارتهم للجمعية واكتفائهم بالذهاب إلى تجمع يوم الأربعاء (والذي فضلنا عدم الذهاب إليه لأسباب أمنية) بالإضافة إلى رفض بعض العائلات الإدلاء بتصريحاتها كون الباحث رجل، وعدم وجود وقت بالنسبة لعائلات أخرى.

وبالنظر إلى مشكلة صعوبة تكوين عينة متنوعة للحالات،بلغت مجموعة دراستنا سبعة أفراد يمثلون سبع عائلات لسبعة مفقودين، كلهم نساء، زوجات أو أخوات المفقودين. وقد احتوت مجموعة البحث على أربع أمهات، زوجتين، وأخت واحدة.

الإطار الزماني للدراسة: أجريت الدراسة بين شهري جانفي وسبتمبر 2017 بالجزائر العاصمة.

فرضيات الدراسة: ومن خلال الإشكالية، تم صياغة الفرضية العامة كما يلي:

- تؤدي ظروف الفقدان دون ثبوت وفاة المفقود والخاصة بمرحلة الإرهاب في الجزائر إلى تعقيد الحداد عند أعضاء عائلات المفقودين.

وانطلاقا من كون الحداد المعقد أو المزمن يعني "الحداد المطوّل"الأكثر ملائمة لطبيعة الحداد عند عائلاتنا ومنه تم صياغة فرضية الدراسة:

- تؤدي ظروف الفقدان دون ثبوت وفاة المفقود والخاصة بمرحلة الإرهاب في الجزائر إلى حداد مزمن أي حداد مطوّل عند أعضاء عائلات المفقودين.

أهداف وأهمية الدراسة: تتضمن دراستنا هدفين فرعيين هما:

- معرفة مدى معايشة عائلات المفقودين للحداد من خلال وصف تظاهراته في مختلف أبعادها.
- التأكد من أن هذه المظاهر تستمر لمدة طويلة دون إمكانية الوصول إلى مرحلة (التقبل) الأخيرة التي تسمح لأفراد العائلات باستعادة توازنهم النفسي.

أما أهمية الدراسة؛ التأكيد على ضرورة التكفل بالحداد المعقد في حالة عدم ثبوت وفاة المفقود، والمساهمة العلمية لهذا البحث بالتعريف ببعض العوامل التي تؤدي لتعقيد الحداد الخاص بظروف اجتماعية من جهة، وليس هناك دراسات أمبريقية حول هذا النوع من الفقدان من جهة ثانية.

طريقة تحليل البيانات:

بعد جمع المعطيات من خلال المقابلة النصف موجهة، اعتمدنا منهج تحليل المحتوى الذي يعد المنهج الأكثر شيوعا لمعالجة محتوى مقابلات نوعية يعني مادة كثيفة ومعقدة.

ويعرف Bardin (1977) تحليل المحتوى من الأدوات المنهجية التي يتم تحسينها باستمرار وتطبق على الخطاب مهما اختلفت أنواعه، وتعتمد على طريقة الإستنتاج والإستدلال. ويتعلق الأمر بجهد تفسيري ينتقل بين قطبين، من جهة صرامة الموضوعية ومن جهة أخرى الوفرة التي تقدمها الذاتية[22].

إذا فتحليل المحتوى هي طريقة منهجية موضوعية لتحليل المحتوى الذاتي، وحسب P. Wanlin (2007) تنقسم إلى ثلاث خطوات: الأولى ما قبل التحليل، والثانية إستغلال المعلومات، والثالثة المعالجة والاستدلال والتفسير.

عرض الحالات حسب الفرضيات:

قمنا في دراستنا الميدانية بسبع مقابلات مع سبع حالات تمثل سبع عائلات للمفقودين، وتتوزع هذه الحالات حسب الجدول التالي:

جدول رقم (01) يبين خصائص مجموعة البحث حسب العمر ووضعية الفقد.

رقم الحالة	اسم الحالة	عمر الحالة	الوضعية بالنسبة للمفقود
الحالة 1	السيدة (ل)	59 سنة	زوجة مفقود
الحالة 2	الحالة (ج)	77 سنة	أم مفقود
الحالة 3	الحالة (ف)	61 سنة	الزوجة الثانية لمفقود
الحالة 4	الحالة (أ)	64 سنة	أم مفقود
الحالة 5	الحالة (ب)	66 سنة	أم مفقود
الحالة 6	الحالة (ن)	52 سنة	أخت مفقود
الحالة 7	الحالة (ز)	69 سنة	أم مفقود

المصدر: من تصميم الكاتبين.

وفيما يلي تحليل مقارن لمختلف أبعاد تظاهرات الحداد حسب الحالات:

جدول رقم (02) يبين أبعاد تظاهرات الحداد حسب الحالات وفق البعد الزمني.

أبعاد تظاهرات الحداد	عدد الحالات
البعد العاطفي	كل الحالات
البعد السلوكي	كل الحالات

البعد المعرفي	كل الحالات
البعد الجسدي	كل الحالات
البعد الاجتماعي	كل الحالات
البعد الزمني	4 حالات على 7

المصدر: من تصميم الكاتبين.

يبين الجدول رقم (02) أن الأبعاد الخمسة الأولى موجودة عند كل الحالات، ما يؤكد الهدف الفرعي الأوّل لبحثنا والمتمثل في وجود حداد تابع لفقدان في ظل عدم تأكد الوفاة،ومن جهة أخرى أن كل أبعاد الحداد كما وصفتها E.Zech والمتبناة في شبكة الملاحظة قد تحققت بمجموعة البحث.

مناقشة النتائج:

من الجدير بالذكر أنه من بين مختلف مؤشرات البعد الاجتماعي لمظاهر الحداد، هناك مؤشر غير مذكور من طرف كل حالات مجموعة بحثنا وهو العزلة التي تتعرض لها كل الأدبيات في مجال الحداد وخاصة E.Zech ويمكن تفسير غياب الشعور بالعزلة كون كل حالات مجموعة بحثنا هم أعضاء في جمعية Sos Disparu(e)sأين يناضلن، فأصبح هذا النضال من أجل الحقيقة فضلا عن اللقاءات والاحتكاكات مع العائلات الأخرى التي عاشت فقدان قريب في نفس الظروف بمثابة دعم نفسي ضد الوحدة والعزلة.

أما بالنسبة للبعد الزمني يظهر بوضوح وجلاء بوجود الاستمرار في جل أبعاد تمظهرات الحداد عند كل الحالات دون استثناء.

كما أن هناك بعض التنويعات (أكثر منه اختلافات) حسب الحالات الفردية، يتعلق الأمر بثلاث حالات (الحالات 2، 3 و6) فيما يخص ببعد واحد من بين الأبعاد الخمسة لتمظهرات الحداد وهو البعد الجسدي خاصة.

أما بالنسبة للحالة الثانية، إنتهت التمظهرات الجسدية بعد القيام بشعيرة دينية وهي عند الحالة هي القيام بالعمرة. وهنا تفسير نهاية التمظهرات الجسدية بممارسة الشعائر الدينية وهو الأمر الذي تدركه الحالة وتعبر عنه في خطابها، بالإضافة إلى التأثير الذي أحدثته أدوية الأمراض المزمنة الناتجة عن التقدم في السن (77سنة).

أما فيما يخص الحالتين الثالثة والسادسة يمكننا تفسير سبب نهاية التمظهرات الجسدية هو طبيعة العلاقة بالمفقود المذكورة في الأدبيات العلمية كسبب من بين أسباب تعقيد الحداد أي أن خطر الحداد المعقد يكون أكبر كلما كان المفقود أقرب (كفقدان موضوع الحب حسب التحليل النفسي)، وهو كونهم ليسوا من الأقارب المقربين.

أما بالنسبة (للحالة الثالثة)، فإن السيدة (ف) لم تعش إلا بضع أسابيع مع زوجها قبل أن يحدث الفقدان ومن ثم فإن التعلق بكل أشكاله كان في بداياته ولم يصل للحد الذي يجعل الحداد يصل لمستوى التعقيد، بينما السيدة (ن) (الحالة السادسة) هي أخت المفقود والذي من الممكن أن الانقطاعات المتكررة في العلاقة معه بسبب غيابه المستمر نتيجة عدة إعتقالات سابقة هو ما يفسر عملية انتهاء الحداد بسهولة ويسر.

إلا أنه من الجدير بالذكر أن التظاهرات الجسدية عند الحالات الثلاث المذكورة لم تنته إلا بعد خمسة عشر سنة على الأقل من الفقدان مع وجود استمرار إلى حد اليوم لكل التظاهرات الأخرى للحداد الأمر الذي أوصلنا للقول بأن كل الحالات تعيش حدادا معقدا مستمرا منذ واحد وعشرين سنة على الأقل.

يؤكد إذا التحليل العرضي المقارن لكل حالات دراستنا الهدف الفرعي الثاني لبحثنا وهو وجود حداد معقد من النوع المزمن.

فيمكن إذا القول أن الفقدان الذي حدث في ظروف أمنية مضطربة، وبالأحرى الغياب التام لأي دليل مادي يؤكد وفاة المفقودين يساهم بشكل كبير، كما عبرت عنه الحالات بنفسها، في كون الحداد الذي تمر به حدادا مزمنا مستمرا حتى اليوم، فضلا عن عملية التدعيم والتغذية المتبادل بين الحالات المعقدة والبسيطة أين يدعمون بعضهم البعض في سبيل الاستمرار في الحداد وهذا ما يفسره اللقاءات التي تنظم كل أسبوع بانتظام.

فغياب القبر عند جل الحالات، وغياب التأكد من الشخص الذي يحتويه القبر عند الحالة السادسة، كان أكثر الأسباب التي ربطت بها الحالات الاستمرار في المعاناة التي تعيشها، كون هذا الغياب حال دون قيام العائلات بالطقوس الدينية والثقافية المرتطبة بالفقدان والتي تساعد على الوصول إلى

مرحلة تقبل الفقدان، وهذا ما ظهر بوضوح عند الحالة الثانية والتي عاشت وفاة ثلاثة أبناء لها بعد الفقدان ولكنها عبرت بوضوح عن وصولها لمرحلة القبول واختفاء المعاناة بالنسبة لهؤلاء الأبناء كونها دفنتهم وتم تعزيتها فيهم، بينما نلاحظ استمرار أغلب أبعاد تظاهرات الحداد عندها فيما يخص المفقود حتى يومنا هذا. ويأتي هذا ليؤكد ما وجدناه في بعض الأدبيات[23]، عن أنه لا يمكن أن يوجد انتهاء لعمل الحداد دون وجود طقوس.

الخاتمة:

تؤكد نتائج دراستنا بوضوح وجود حداد من النوع المزمن عند كل الحالات، إلّا أن حدود دراسة الحالة المتعددة من جهة، والحدود التي أجبرنا عليها الميدان من عدد محصور وقلة التنويع من جهة أخرى، تجعل نتائج بحثنا غير قابلة للتعميم الذي يبقى هدف العلم، لكن دراسة الحالة المتعددة لا تستثني إمكانية إحداث "نوع من التعميم" يبنى على وجود تماثل في النتائج بين حالات فردية مختلفة، ويسمح بالخروج بفرضية جيدة يجب التأكد منها من خلال بحوث كمية موضوعية قد تسمح بالقيام بالتعميم.

فتفتح هذه الحدود أبوابا لدراسات مستقبلية حول طبيعة الحداد عند الرجال أفراد عائلات المفقودين، وكذا عند تلك العائلات التي لم تدخل في نضال اجتماعي جمعوي من أجل قضية فقدان أقاربها.

وأخيرا إذا كان الحذر واجبا بالنسبة للمصداقية الخارجية لدراستنا، فإن المصداقية الداخلية الخاصة بحالات عائلات المفقودين التي درسناها تبقى معتبرة، إذ يمكننا القول أن النتائج المتشابهة والمتمثلة في كون الحداد المعاش لمجموعة البحث هو حداد معقد من النوع المزمن تجعلنا كمختصين في علم النفس العيادي نوصي بضرورة وجود عمل برفقة مختص للتخفيف من معاناة الحداد المزمن التي تعيشه هذه العائلات والوصول به إلى نهايته وكذا القيام بدراسات أكثر على هذه الفئة بقصد فهم معاشها النفسي والاستفادة منه في التكفل بها فضلا عن الفقدان جراء كوارث طبيعية أو حروب...

قائمة المراجع:

1- زقار رضوان وسي موسي عبد الرحمان،العنف الإرهابي ضد الطفولة والمراهقة، علامات الصدمة والحداد في الاختبارات الإسقاطية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015.
2- حريز عبد الناصر، النظام السياسي الإرهابي الإسرائيلي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996.
3- عامر صلاح الدين، المقاومة الشعبية المسلحة في القانون الدولي العام، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.
4- عباس محمد، مدخل إلى مناهج البحث في التربية وعلم النفس، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2007.
5- وادف الراضية، مساهمة في دراسة الرجوعية عند مراهق مصدوم جراء وفاة الأب نتيجة حادث، رسالة ماجستير، جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر، 2009.
6- Angladette, L. et Consoli, S. M, Deuil normal et pathologique, La revue du praticien, 2004,N ° 54. 911-917. Récupéré sur : https://goo.gl/EmCbQh
7- Bacqué, M, Deuil et santé, Odile Jacobe, France, 1997.
8- Barbot, M, Processus de deuils et mass–kinésithérapie, quelles approches adaptées ? (TFE Diplôme d'Etat de Masseur-Kinésithérapeute, Institut Régional de formation sanitaire et sociale du Limousin, France), 2011, Récupéré sur : https://goo.gl/RLwGpx
9- Bertrand, M,Pour une clinique de la douleur psychique, Edition le Harmattan, France,1996.
10- Chabrier, L, Psychologie clinique. la pratique du clinicien les principales théories de nombreux exemple et études de cas concrets,Hachette Supérieur,France, 2006.
11- CNDH, Rapport Annuel. Etat des droits de l'homme en Algérie, publication du CNDH, Algérie, 2013, Récupéré sur: shorturl.at/amPR9.
12- Collectif des Familles de disparu(e)s (CFDA), Les disparitions forcées en Algérie, un crime contre l'humanité, 1990-2000, 2016.
13- Convention internationale pour la protection de toutes les personnes contre les disparitions forcées, (2006), Récupérésur: https://goo.gl/fkUDws.
14- Dictionnaire Encyclopédique, Grand Usuel Larousse, Volume 5, Impression Aubin,France, 1997.

15- Djilali, B. (2005, 13 Avril). Impossible d'identifier les agents qui ont commis les dépassements. Le Quotidien D'Oran. Récupérésur : https://goo.gl/moh4UZ
16- Hamrouche, G, L'amnistie est la meilleure des solutions pour tourner la page, La Tribune,(2005, 9 Mars), Récupéré sur : https://goo.gl/dT4c3z
17- Luis-Vincent, T, Leçon pour l'occident. Ritualité du chagrin et du deuil en Afrique noire, Dans T. Nathan Rituel de deuil et travail du deuil, France: La pensée sauvage, 1995, PP .17-56.
18- Parkes M, Le deuil. Etudes du deuil chez l'adulte, Editions Frison-Roche, France, 2003.
19- Wanlin P, L'analyse de contenu comme méthode d'analyse qualitative d'entretiens, Une comparaison entre les traitements manuels et l'utilisation de logiciels. Université de Luxembourg, 2007, Récupéré sur: shorturl.at/mrvy8
20- Zech E, psychologie du deuil. Impact et processus d'adaptation au décès d'un proche, Mardaga, Belgique, 2006.

الهوامش:

[1]- Zech, E,psychologie du deuil. Impact et processus d'adaptation au décès d'un proche, Mardaga, Belgique,2006, p.11-15.

[2]- عامر صلاح الدين، المقاومة الشعبية المسلحة في القانون الدولي العام، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص447.

[3]- حريز عبد الناصر، النظام السياسي الإرهابي الإسرائيلي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، ص17.

[4]- زقار رضوان وسي موسي عبد الرحمان، العنف الإرهابي ضد الطفولة والمراهقة، علامات الصدمة والحداد في الاختبارات الإسقاطية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2005، ص 91.

[5]- زقار رضوان وسي موسي عبد الرحمان، العنف الإرهابي ضد الطفولة والمراهقة، مرجع سابق، ص 91.

[6]- Dictionnaire Encyclopédique, Grand Usuel Larousse, Volume 5, Impression Aubin, France, 1997, p. 14.

[7]- M. Barbot, Processus de deuils et mass –kinésithérapie, quelles approches adaptées ? (TFE Diplôme d'Etat de Masseur-Kinésithérapeute, Institut Régional de formation sanitaire et sociale du Limousin, France), 2011, Récupéré sur: https://goo.gl/RLwGpx, P. 12.

[8]- E. Zech, E, psychologie du deuil. Impact et processus d'adaptation au décès d'un proche, Mardaga, Belgique 2006, P.56.
[9]- Bacqué. M, Deuil et santé, Odile Jacobe, France, 1997, P. 38.
[10]- E. Zech, E, psychologie du deuil. Impact et processus d'adaptation au décès d'un proche, Mardaga, Belgique, 2006, P. 81.
[11]- E. Zech, E, psychologie du deuil. Impact et processus d'adaptation au décès d'un proche, Mardaga, Belgique, 2006, p 83.
[12]- Bacqué. M, Deuil et santé, Odile Jacobe, France, 1997, P. 41.
[13]- Bacqué. M, Deuil et santé, Odile Jacobe, France, 1997, p. 42.
[14]- M. Parkes, Le deuil. Etudes du deuil chez l'adulte, Editions Frison-Roche, France, 2003, P. 185.
[15]- Bacqué. M, Deuil et santé, Odile Jacobe, France, 1997, P. 43.
[16]- L. Angladette, et Consoli, S. M, Deuil normal et pathologique, La revue du praticien, 2004,N ° 54. 911-917. Récupéré sur : https://goo.gl/EmCbQh, P. 913.
[17]- وادفال راضية، مساهمة في دراسة الرجوعية عند مراهق مصدوم جراء وفاة الأب نتيجة حادث، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، 2009، ص ص 37-38.
[18]- Luis-Vincent Thomas, Leçon pour l'occident. Ritualité du chagrin et du deuil en Afrique noire, Dans T. Nathan Rituel de deuil et travail du deuil, France: La pensée sauvage,1995, P. 21.
[19]- Pertrand, M, Pour une clinique de la douleur psychique, Edition le Harmattan, France, 1996, p. 77.
[20]- Lydia Chabrier, Psychologie clinique. La pratique du clinicien les principales théories de nombreux exemple et études de cas concrets, Hachette Supérieur, France, 2006, p. 162.
[21]- محمد عباس، مدخل إلى مناهج البحث في التربية وعلم النفس، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص 222.
[22]- P. Wanlin, L'analyse de contenu comme méthode d'analyse qualitative d'entretiens, Une comparaison entre les traitements manuels et l'utilisation de logiciels. Université de Luxembourg, 2007, Récupéré sur: shorturl.at/mrvy8, P. 249.
[23]- Bacqué. M, Deuil et santé, Odile Jacobe, France, 1997, p. 14.